عربة اللُّقَطاء

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جلستُ على ساحل الشاطئ (في اسكندرية) أتأملُ البحر، وقد ارتفع الضُّحى، ولكنَّ النهارَ لَدْنٌ ناعمٌ رطيبٌ كأن الفجرَ ممتدٌّ فيه إلى الظهر

وجاءت عربةُ اللُّقَطاء فأشرفتْ على الساحل، وكأنها في منظرها غمامةٌ تتحرك إذ تعلوها ظُلةٌ كبيرة في لون الغَيْم. وهي كعربات النقل غير أنها مُسوَّرة بألواحٍ من الخشب كجوانب النعش تُمسِك من فيها من الصِّغار أن يتدحرجوا منها إذ هي تَدرُجُ وتَتَقلقل

ووقفتْ في الشارع لتُنزِلَ ركْبَها إلى شاطئ البحر؛ أولئك ثلاثون صغيراً من كل سَفِيحٍ ولَقِيط ومنبوذ، وقد انكمشوا وتضاغطوا إذ لا يمكن أن تُمَطَّ العربةُ فتسعهم، ولكن يمكن أن يَكْتبِسوا ويتداخلوا حتى يَشْغَلَ الثلاثةُ أو الأربعةُ منهم حَيِّزَ اثنين. ومن منهم إذا تألم سيذهبُ فيشكو لأبيه ...؟

وترى هؤلاء المساكينَ خليطاً مُلتبِساً يُشعرك اجتماعهم أنهم صيدٌ في شبكة لا أطفالٌ في عربة، ويدلك منظرهم البائسُ القليلُ أنهم ليسوا أولادَ أمهاتٍ وآباء، ولكنهم كانوا وساوس آباء وأمهات ....

* * *

هذه العربةُ يجرها جوادان: أحدهما أدهمُ والآخر كُمَيْت. فلما وقفتْ لوَى الأدهمُ عُنقَه والتفت ينظر؛ أيُفرِغون العربةَ أم يَزيدون عليها ..؟ أما الكُمَيْتُ فحرك رأسه وعَلك لجامه كأنه يقول لصاحبه: إن الفكرَ في تخفيف العبء الذي تحمله يجعله أثقلَ عليك مما هو إذ يضيف إليه الهمَّ، والهمُّ أثقل ما حملت نفس؛ فما دمتَ في العمل فلا تتوهمن الراحةَ فإن هذا يوهنُ القوة، ويخذُلُ النشاط، ويجلبُ السأم، وإنما روحُ العمل الصبر، وإنما روح الصبر العزم

ورآهم الأدهمُ يُنزلون اللقطاء، فاستخفَّه الطرب، وحرك رأسه كأنما يسخر بالكميت وفلسفته، وكأنما يقول له: إنما هو النُّزوعُ إلى الحرية، فإن لم تكن للحق ذاتها فلتكن لك في ذاتك. وإذا تعذَّرت اللذة عليك فاحتفظ بخيالها فإنه وُصلتُكَ بها إلى أن تمكن وتتسهَّل؛ ولا تجعلَنَّ كلَّ طباعك طباعاً عاملةً كادحةً وإلا فأنت أداة ليس فيها إلا الحياةُ كما تريدك؛ وليكن لك طبعٌ شاعرٌ مع هذه الطباع العاملة فتكونَ لك الحياة كما تريدك وكما تريدها

إن الدنيا شيء واحد في الواقع، ولكن هذا الشيء الواحدَ هو في كل خيال دنيا وحدها

* * *

وفي العربة امرأتان تقومان على اللقطاء؛ وكلتاهما تَزْوَرُّ للأمر على هؤلاء الأطفال المساكين؛ فلما سكنت العربة انحدرت منهما واحدة وقامت الأخرى تُناولها الصغار قائلةً: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة ... إلى أن تم العدد وخلا قفصُ الدجاج من الدجاج ...!

ومشى الأطفالُ بوجوه يتيمة، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلمةٌ، مستكينة، معترفة أن لا حق لها في شيء من هذا العالم إلا هذا الاحسان البخس القليل

جاءوا بهم لينظروا الطبيعة والبحر والشمس، فغفل الصغار عن كل ذلك وصرفوا أعيُنَهم إلى الأطفال الذين لهم آباء وأمهات ....

* * *

واكَبِدي أضنَى الأسى كَبِدي؛ فقد ضاق صدري بعد انفساحه، ونالني وَجعُ الفكر في هؤلاء التعساء، وعَرتني منهم علةٌ كدسٍّ الحمى في الدم. وانقلبتُ إلى مَثواي، والعربة وأهلُها ومكانُها وزمانها في رأسي

فلما طاف بي النوم طاف كل ذلك بي، فرأيتني في موضعي ذاك وأبصرتُ العربةَ قد وقفت، وتحاور الأدهمُ والكميت. فلما أفرغوها وشعر الجوادان بخفتها التفتا معاً ثم جمعا رأسيهما يتحدثان!

قال الكُميت: كنتُ قبل هذا أجرُّ عربة الكلاب التي

يقتلها الشُّرطة بالسُّم ، فآخذ الموتَ لهذه الكلاب المسكينة . ثم أرجع بها مَوتَى ؛ وكنتُ أذهبُ وأجيء في كل مَرادٍ ومضطرب من شوارع المدينة وأزقتها وسككها ولا أشعر بغير الثقل الذي أجره ؛ فلما ابتليت بعربة هؤلاء الصغار الذين يسمونهم اللقطاء ، أحسست ثقلاً آخر وقع نفسي وما أدرى ما هو ، ولكن يخيل إليّ أن ظل كل طفل منهم يُثقِل وحده عربة

قال الأدهم : وأنا فقد كنت أجرّ عربةَ القُمامة والأقذار ، وما كان أقذرَها وأنتنَها ، ولكنها على نفسي كانت أطهرَ من هؤلاء وأنظف ، كنتُ أجدُ ريحَها الخبيثة ما دمتُ أجرها ؛ فاذا أنا تركتُ العربة استَرْوَحتُ النسيمَ واستطعمت الجو ، أما الآن فالريحُ الخبيثةُ في الزمن نفسه كأن هذا الزمن قد أروح وأنتنَ منذ قُرنتُ بهؤلاء وعربتهم

قال الكميت : إن ابنَ الحيوان يستقبلُ الوجودَ بأمه إذ يكون وراءها كالقطعة المتممة لها ، ولا تقبل أمُّه إلا هذا ولا يصرفُها عنه صارف ، فترغمُ الوجود على أن يتقبل ابنها وعلى أن يعطيَه قوانينَه . أما هؤلاء الأطفالُ فقد طردهم الوجودُ منه كما طرد الله آباءَهم وأمهاتهم من رحمته . وقد هُديتُ الآن إلى أن هذا هو سرٌّ ما نشعر به ؛ فلسنا نجر للناس ولكن للشياطين..

* * *

وهنا وقف على حوذيّ العربة صديقٌ من أصدقائه فقال : من هؤلاء يا أبا علي ؟

قال الحوذي : هؤلاء هؤلاء يا أبا هاشم

قال أبو هاشم : سبحان الله ، أما تترك طبعك في النكتة يا شيخ ؟

قال الحوذي : وهل أعرفهم أنا ؟ هم بضاعةُ العربة والسلام . اركبوا يا أولاد ، انزلوا يا أولاد . هذا كل ما أسمع

قال أبو هاشم : ولكن ما بالك ساخطاً عليهم ، كأنهم أولاد أعدائك ؟

قال الحوذي : ليت شعري من يدرى أي رجل سيخرج من هذا الطفل ، وأية امرأة ستكون من هذه الطفلة ؟

انظر كيف تعلقت هذه البنتُ وعمرها سنتان ، في عُنق هذا الولد الذي كان من سنتين ابن سنتين (1) . . . . لا أراني أحمل في عربتي أطفالاً كالأطفال الذين تحملهم المربيات إلى أبواب دُورهم فإن هؤلاء اللقطاء يُحملون إلى باب الملجأ ، وهو بابٌ للحارات والسكك لا يأخذُ إلا منها ، فلا يرسل إلا إليها

أنا والله يا أبا هاشم ضيّقُ الصدر ، كاسفُ البال من هذه المهنة ، ويخيّل إليّ أني لا أحمل في عربتي إلا الجنون والفجور والسرقة والقتل والدّعارة والسُّكر وعواصف وزوابع . . . .

قال أبو هاشم : ولكن هؤلاء الأطفال مساكين ، ولا ذنب لهم

قال الحوذي : نعم لا ذنب لهم ، غير أنهم هم في أنفسهم ذنوب . إن كل واحد من هؤلاء إن هو إلا جريمة تُثبت امتدادَ الإثم والشر في الدنيا . ولدتهم أمهاتهم لِغَيَّة (2)

فقطع صاحبُه عليه وقال : وهل وَلَدَتْهُم إلا كما تلد سائر الأمهات أولادهن ؟

قال : نعم إنه عمل واحد ، غير أن أحواله في الجهتين مختلفة لا تتكافأ ؛ وهل تستوى حالُ من يشترى المتاع ، ومن يسرق المتاع ؟

ههنا باعثٌ من الشهوة قد عجز أن يسموَ سموَّه — وما سموُّه إلا الزواج — فتسفّل وانحط ، ورجع فسقاً ، وعاد أوله على آخره . كان أوله حزماً فلا يزال إلى آخره حزماً ، ولا يزال أبداً يعود أوله على آخره . فلما حملت المرأة وفاءت إلى أمرها ، وذهب عنها جنونُ الرجلِ والرجلُ معاً ؛ انطوت للرجال على الثأر والحقد والضغينة ؛ فلا يكون ابنُ العار إلا ابن هذه الشرور أيضاً

والأمهاتُ يُعْدِدْنَ لأجنَّتهن الثيابَ والأكسيةَ قبل أن يولدوا ، ويهيئْن لهم بالفكر آمالاً وأحلاماً في الحياة ، فيكسبْنَهم في بطونهن شعورَ الفرح والابتهاج وارتقابَ الحياة الهنيئة والرغبةَ في السموّ بها ؛ ولكن أمهات هؤلاء يمددن لهم الشوارعَ والأزقة منذ البدء ، ولا تترقب إحداهن

(1) تعبير بالنكتة على طريقة ظرفاء البلديين من أمثال (أبي علي) ، والمراد أنه ابن أربع سنوات

(2) ولدته لغية أي من سفاح وضده لرشدة بفتح الراء

طولَ أشهر حملها أن يجيئها الوليد بل أن يتركها حياً أو مقتولاً ؛ فيُورثهم بذلك وهم أجنّةٌ شعورَ اللفة والحسرة والبغض والمقت ، ويطبعهم على فكرة الخطيئة والرغبة فى القتل ، فلا يكون ابن العار إلا ابنَ هذه الرذائل أيضاً

وتظلّ الفاسقةُ مدة حملها تسعة أشهر فى إحساس خائف ، مترقب ، منفرد بنفسه ، منعزل عن الانسانية ، ناقم ، متبرم ، متستر ، منافق . فلو كان السَّفيحُ من أبوين كريمين لجاء تُعباناً آدمياً فيه سُمُّه من هذا الاحساس العنيف . ومتى ألقتْ الفاسقةُ ذا بطنها [1] قطعتْه لِسَوْءٍ من روابط أهله وزمنه وتاريخه ورمت به لبموت ؛ فان هلك فقد هلك ، وإن عاش لمثل هذه الحياة فهوموت آخرشرٌّ من ذلك ؛ ومهما يَتَوَلَّهُ الناسُ والمحسنون ، فلا يزال أوله يعود على آخره مما فى دمه وطباعه الموروثة ، ولايبرحُ جريمةً ممتدةً متطاولة ، ولا ينفكُّ قصةً فيها زانٍ وزانيةٌ ، وفيها خطيئة ولعنة

فهؤلاء كما رأيتَ أولادُ الجرأة على الله ، والتعدّى على الناس والاستخفاف بالشرائع ، والاستهزاء بالفضائل ؛ وهم البغضُ الخارج من الحب ، والوقاحةُ الآتيةُ من الخجل ، والاستهتارُ المنبعث من الندامة ؛ وكل منهم مسئلةُ شر تطلب حلها أو تعقيدَها من الدنيا ، وفيهم دماءٌ فوّارة تجمع سمومها شيئاً فشيئاً كلما كبروا سنة فسنة

قال أبو هاشم : ألا لعنة الله على ذلك الرجل الفاسق الذى اغترّ تلك المرأة فاستزلها وهوّرها فى هذه الشهوات . أكان حقُّ الشهوة عليه أعظمَ من حق هذا الآدمى . أما كان ينبغى أن يكون هذا الآخرُ هو الأولَ فى الاعتبار ، فيعلمَ أن هذا اللقيط المسكين هو سبيله إلى صاحبته ، وهو البلاغُ إلى مايحاوله منها ، فيكون كأنما دخل بين الاثنين ثالث يراهما . . . فلمثلهما يستحيان

قال الحوذىّ الفيلسوف : لعنة الله على ذلك الرجل ، ولعناتُ الله كلُّها ، ولعناتُ الملائكة والناس أجمعين على تلك المرأة التى انقادت له واغترت به . إن الرجل ليس شيئاً فى هذه الجريمة فقد كانت بصقةً واحدة تُغرقُه ، وكانت صفعةً واحدة تهزمه ، وكان مع المرأة الحكومةُ والشرائعُ والفضائلُ ومعها جهنم أيضاً

(١) أى وضعت وولدت ، وهو تعبير عربى بليغ

ألم تعلم الحمقاء أن الرجل الذى ليس زوجاً لها ليس رجلاً معها ، وأن الشريعة لو أيقنت أنه رجل لما حرمت عليها أن تخالطه ؟ إنه ليس الرجل هو الذى ساوَرَ هذه المرأة ، بل هى مادة الحياة التى رأت فى المرأة مُستودعها فتريد أن تقتحم إلى مقرها عَنوة أو خداعاً أو رضى أو كما يتفق ؛ إذ كان قانون هذه المادة أن توجد ، ولا شيء إلا أن توجد ؛ فلا تعرف خيراً ولا شراً ولا فضيلة ولا رذيلة

لأنهما يجب التحصين . أللصاعقة المنقضّة ، أم للمكان الذى يُخشى أن تنقضّ عليه ؟ لقد أجابت الشريعة الاسلامية : حصّنوا المكان ؛ ولكن المدنية أجابت : حصنوا الصاعقة ... !

* * *

وكانت المرأتان المصاحبتان لجماعة اللقطاء تتناجيان ، فقالت الكبرى منهما :

يا حسرتا على هؤلاء الصغار المساكين . إن حياة الأطفال فيما فوق مادة الحياة ، أى فى سرورهم وأفراحهم ، وحياة هؤلاء البائسين فيما هو دون مادة الحياة ، أى فى وجودهم فقط

وكِبَرُ الأطفال يكون منه إدخالهم فى نظام الدنيا ، وكِبَرُ هؤلاء إخراجهم من « الملجأ » وهو كل النظام فى دنياهم ، ليس بعده إلا التشريدُ والفقر وابتداء القصة المحزنة

فقالت الصغرى : ولم لا يفرحون كأولاد الناس . أليست الطبيعةُ لهم جميعاً ، وهل تجمعُ الشمس أشعتها عن هؤلاء لتضاعفها لأولئك ؟

قالت الأخرى : الطبيعة ؟ تقولين الطبيعة ؟ إنك يا ابنتى عذراء لم تبدأ فى حياتك حياةٌ بعد ، ولم تجاوبى بقلبك القلبَ الصغير الذى كان تحت قلبك تسعة أشهر . وإنما أنت مع هؤلاء (موظفة) لا تعرفين منهم إلا جانب النظام وقانون الملجأ

لقد ولدت يا ابنتى خمسة أطفال ، وبالعين البليغة التى أنظر بها اليهم ، أنظر إلى هؤلاء فما أراهم إلا منقطعين من صلة القلب الانسانى ؛ يعبسُ لهم حتى الجو ، ويُظلم عليهم حتى النور ؛ ويبدو الطفل منهم على صغره كأنه يحملُ الغمَّ المقبلَ عليه طولَ عمره

يا لهفى على عودٍ أخضرَ ناعمٍ ريانَ كان للثمر فقيـل له : كن للحطب

الفرحُ يا ابنتى هو شعورُ الحىّ بأنه حىٌّ كما يهوى ، ورؤيته نفسه على ما يشاء فى الحياة الخاصة به . وهؤلاء القطاءُ فى حياةٍ عامة قد نُزعت منها الأمُّ والأب والدار فليس لهم ماضٍ كالأطفال وكأنهم يبدأون من أنفسهم لا من الآباء والأمهات

قالت الصغيرة : ولـكنهم أطفال

قالت تلك : نعم يا ابنتى هم أطفال ، غير أنهم طردوا من حقوق الطفولة كما طردوا من حقوق الأهل . وحسبك بشقاء الطفـل الذى لم يعرف من حنان أمه إلا أنها لم تقتله ، ولا من شفقتها إلا أنها طرحته فى الطريق

إن الطبيعة كلها عاجزة أن تعطىَ أحدهم مكاناً كالوضع الذى كان يتبوأه بين أمه وأبيه

ليس الأطفالُ يا ابنتى إلا صوراً مبهمة صغيرة من كل جمال العالم ، تفسرها أعينُ ذويهم بكل التفاسير القلبية الجميلة ؛ فأين أين العيون التى فيها تفسير هذه الصور اللقيطة ؟

ألا لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين على أولئـك الرجال الأنذال الطَّغام الذين أولدوا النساءَ هؤلاء المنبوذين . يزعمون لأنفسهم الرجولة فهذه هى رجولتهم بين أيدينا ، هذه هى شهامتهم، هذه هى عقولهم ، هذه هى آدابُهم . . عجباً إن سيئاتِ اللصوص والقتلة كلَّها يُنسى ويتلاشى ، ولـكن سيئات العشاق والمحبين تعيش وتـكبر . . .

أ كان ذنبُ المرأة أنها صادقةٌ فصدَّقت ، وأنها مخلصـةٌ فأخلصت ، وأنها رقيقةٌ فلانت ، وأنها محسنة فرحمت ، وأنها سليمة القلب فانخدعت ؟

وا كبدى للمسكينة هل انخدعت إلا من ناحية الأمومة التى خلقت لها . هل انخدعت إلا الأم التى فيها ، وهل خدعها من ذلك اللئيم إلا الأبُ الذى فيه ؟

وا كَبدى لمن تُفجع بالنكبة الواحدة ثلاثَ فجائع : فى كرامتها التى ابتُذلت ، وفى الحبيب الذى تبرأ منها ، وفى طفلها الذى قطعته بيدها من قلبها وتركته لما كُتب عليه

إن هذا لا يعوِّضُه فى الطبيعة — إلا أن يكون لـكل رجل من أولئك الأنذال ثلاثُ أرواح ، فيُقتَـلَ ثلاثَ مرات ، واحدة بالشنق ، والثانية بالحرق ، والثالثة بالرَّجم بالحجارة

* * *

وكان القطاءُ قد تَبعْثروا على الساحل جماعاتٍ وشتى ، فوقف أحدهم على طفل صغير يلعب بين يديه ، وأمه على كثَب منه ، وهى تتلهى بالغزْل تتلوَّى فيه أصابعُها

فنظر الطفل إلى اللقيط وأومأ إلى جماعته ثم قال : أأنتم جميعاً أولاد هاتين المراقبتين أم إحداها ؟

قال اللقيط : هما المراقبتان ؛ وأنت أفليست هذه التى معك مراقبة ؟

قال الطفل : ما معنى مراقبة ؟ هذه ماما ؟

قال الآخر : فما معنى ماما ؟ هذه مراقبة

قال الطفل : وكلـكم أهل دار واحدة ؟

قال : نحن فى الملجأ ، ومتى كبرنا أخذونا إلى دُورنا

فقال الطفل : وهل تبكى فى الملجأ إذا أردت شيئاً ليعطوك ؛ ثم تغضب إذا أعطوك لنزيدوك ، وهل يُسكتونك بالقرش والحلوى والقُبلة على هذا الخد وعلى هذا الخد ؟ إن كان هذا فأنا أذهب معكم إلى الملجأ ، فإن أبى قد ضربنى اليوم ، وقد أمر (ماما) أن لا تعطينى شيئاً إذا بكيت ، ولا تزيدنى إذا غضبت ، ولا . . . .

وهنا صاحت المراقبة الصغيرة : تعال يا رقم عشرة . . . .

فلوى اللقيط المسكينُ وجهَه ، وانصاع وأدبر

« ومشى الأطفال بوجوه يتيمة ، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلمة ، مستكينة ، معترفة أن لا حق لها فى شىء من هذا العالم إلا هذا الاحسان البخس القليل » . . . .؟

(اسكندرية)

إلى (فلان) بنابل — تونس — إن كانت مقالات الانتحار قد صدتك عن الانتحار إلى حين فهل تريد جنوناً بعد عقل وكفراً بعد إيمان ؟ وكيف تريد الانتحار فى ليلة زفاف صاحبتك ، فتلق عليها الريبة وهى طاهرة ، وترميها فى الأفواه تمضغها مضغ المر ، وتنشىء لها بجنونك قصة فى الاثم والعار ليس منها حرف صحيح !

إن لم تتق الله فى نفسك فاتق الناس فى نفسك الأخرى ، وان لم تكن كريماً فلا تكن بهذا اللؤم مع التى أحببتها وأحبتك (الرافعى)